فوكنر في رأي سارتر

عرض مجاهد عبد المنعم مجاهد

شغل وليم فوكنر تفكير جان بول سارتر منذ مطلع حياته الفكرية فكتب دراسة عن رواية فوكنر « سارتوريس » عام ١٩٣٨ ثم نشر دراسة اخرى نقدية عن رواية « الصخب والعنف » عام ١٩٣٩ درس فيها مشكلة الزمن . وقد نشرت الدراستان في كتابه « مواقف » الجزء الاول ..

« سارتوريس » وليم فوكنر

تشبه الروايات العظيمة الظواهر الطبيعية ، اننا ننسى ان لها مؤلفين ، اننا نتقبلها كما نتقبل الاحجار والاشجار ذلك لانها قائمة هناك، لانها موجودة . ورواية « الضوء في اغسطس » عبارة عن حجر كريم . لكننا لانتقبل سارتوريس ، وهذا هو مايجعل الكتاب قيما . فان فوكنر انما يخون نفسه فيه ، وهذا أدى بي الى فهم اصول فن فوكنر . هذه الاصول هي الوهم Illusion فمن الحق ان الفن جميعه زائف ، ان هناك نوعين من الصور : الصور الحقيقية والنوع الوهمي من الصور ..

لقد تقبلت « الانسان » في « الضوء في اغسطس » ، لقد نظرت اليه على انه « انسان فوكنر » بنفس الطريقة التي انظر بها الى انسان ديستوفسكي » ، لقد تقبلت هذا الحيوان الضخم الالهي الذي لا اله له ، الضائع منذ الميلاد والمحطم والاخلاقي في الجريمة والتفكير ، لا ساعة الموت ولكن قبل هذا بلحظات . لقد تقبلت هذا الحيوان العظيم في عذابه وانحطاط جسده . انني تقبلته ولم أنس وجهه الطاغي المهدد وكذلك لم أنس عيونه التي لا تبصر . ولقد وجدته ثانية في « سارتوريس » ..

ومع هذا لم اعد اتقبل انسان فوكنر ، انه مخلوق وهمي . انه مكون من الضوء . هناك لعبة ، حيلة ، والحيلة قائمة في عدم القص واحتفاظ بالاسرار ، وليس هناك قص الا فيما ندر . فنحن نعرف ان « بايارد » قلق لعودة حفيده غير المتوقعة . انه يمر على الامر مرورا عابرا ونحن نتوقع عاصفة ستنفجر . لكن فوكنر لعلي علم بعدم صبرنا ، فيعول على هذا ويتوقف وينتقل الى الشخصيات الواقعية مثل « دريزر » . لكن اوصاف دريزر اخبارية تسجيلية ، فوصف الحركات لاغرض لها بل المقصود بها اخفاء الاشياء . اننا نترقب ان يفضح شيء ما اضطراب بايارد وقلقه ، لكن آل سارتوريس لايسكرون ولا يفضحون انفسهم عن طريق الحركات . ومع هذا فهم يتكلمون ويفكرون فيما بين انفسهم ويثارون . ان فوكنر يعرف هذا . وبين الحين والحين يكشف المؤلف لنا وعيا ما . لكن الامر أشبه بالحاوي الذي يمسك الصندوق وهو فارغ . فماذا نرى ، لاشيء سوى الحركات ، لاشيء اكثر مما نراه من الخارج ، ثم نرى وعيا يظهر سريعا ثم نرى ثانية الحركات : التنس ، البيانو ، الويسكي ، المحادثة . وهذا هو مالا أستطيع ان أهضمه . فكل شيء يستهدف ان يجعلنا نعتقد ان هذه العقول خاوية . لماذا ؟ لان الوعي شيء انساني للغاية . لكن فوكنر يعرف تمام المعرفة ان العقول ليست خاوية ولا يمكن ان تكون كذلك ولهذا يكتب :

« ... أمسكت وعيها ثانية بارادتها كما تمسك طفلا مغمورا في الماء بعد ان يكف عن نضاله . »

لكنه لا يخبرنا عما « بداخل » الوعي الذي يريد أن يسحبه ، فسرعان ما ينغمر وسط الحركات التي نشكو منها لكثرتها كما يمكن أن نشكو من موسيقى موزار فنقول له : ان موسيقاه مليئة بالنغمات . واسلوب فوكز المليء بالليونة والتجريد لهو احدى الخدع الوهمية حيث يحيط الحركات بدلالة ملحمية . وفوكنر يقصد ، الى هذا قصدا ، فهو يستهدف بالفعل هذه الرتابة التي تبعث الغثيان ، يقصد هذه الرتابة المنبثة في الحياة اليومية .

وتكمن الدراما الحقيقية « وراء » الحركات ووعي الشخصيات ، فمن أعماق هذه الدراما يظهر الحدث . انه شيء يحدث ، رسالة ! لكن فوكنر يخيبنا .. ان الافعال والاحداث من جوهر الرواية ، وهي تعد بعناية ثم تحدث في الوقت المحدد وتكون بسيطة وتنزلق بين أصابعنا . ولا يوجد مزيد من القول يمكن أن نقوله عنها ، فمجرد ذكرها يكفي. لكن فوكنر لا يتحدث عن الاحداث ولا يذكرها ومن ثم يوحي بأنها مما تقصر عنه اللغة وأنها وراء اللغة. انه لا يكشف الا نتائجها : رجل عجوز ، ميت في مقعده ، عربة تنقلب في النهر ، وقدماه تبرزان من الماء .

ان احداث العنف هذه سوف تتغير بعد ذلك الى « حكايات » وستمنح أسماء وتحلل . فكل هؤلاء الناس وهذه العائلات لهم حكاياتهم . والقصص تظهر وتختفي وتمر من شفة الى أخرى ساحبة وراءها شريط حركات الحياة اليومية . انها لا تمت الى الماضي تماما ، بل هن بالاحرى شيء فوق الحاضر .

وفوكنر ينثر الحكايات المتعددة ، ولما كان هو الذي يحكيها ، فهو على دراية بها . وهي حكايات عجيبة ، انه يحلم بعالم يمكن أن نصدق فيه هذه الحكايات وحيث تؤثر هذه الحكايات في الناس بالفعل ، وان رواياته لترسم عالم أحلامه . اننا الفنا « تكنيك الفوضى » في رواية « الصخب والعنف » وفي رواية « الضوء في اغسطس » هذا الخليط من الماضي والحاضر . ولقد اكتشفت أصل هذا في « سارتوريس » . ان هناك ضرورة شديدة لتقطيع الحدث حتى تروى الحكاية ، وهذا من خصائص الروايات الفنائية ، وكذلك هناك ايمان شبه خيالي ومخلص في القوة السحرية للحكايات ، لكن عندما كتب فوكنر « سارتوريس » لم يكن قد انضج وأكمل تكتيكه بعد ، فالانتقالات من الحاضر الى الماضي ومن الحركة الى الحكاية مشوشة للغاية .

ان انسان فوكنر من النوع « الذي لا يكتشف » ، هو لا يفهم في حركاته الخارجية ولا عن طريق حكاياته الخيالية وكذلك لا عن طريق

أفعاله لانها ومضات ينقصها الوصف . ومع هذا فوراء السلوك والكلمات، ووراء الوعي الخاوي يوجد الانسان .

ان ما يهم فوكنر من هذا الانسان هو « طبيعة » هذا المخلوق الجديد ، وهي طبيعة « شاعرية » سحرية مليئة بالتناقضات . هذه « الطبيعة » التي تبينها في ضوء التصرفات السيكولوجية لها وجود سيكولوجي . انها ليست على هامش الشعور تماما لان الناس الذين يتصرفون وفقا لها يمكن أن يتأملوها . لكن من جهة اخرى فهي محددة كتعويذة الشر . ان ابطال فوكنر يحملونها في داخلهم منذ لحظة الميلاد .

انها اذن شيء صلب كالحجر أو الصخر ، انها شيء ، شيء روحي، روح صلبة قائمة وراء الوعي . انها ظل جوهره الوضوح . ان شخصيات فوكنر قد سحر لها وهن مغلفة في جو السحر . وهذا هو ما أقصده بكلمة وهم . هذه التعاويذ مستحيلة ، بل هي ليست مقنعة ، وفوكنر حريص على ألا يدعنا نقتنع بها . ان مذهبه جميعه يستهدف الى الايحاء بهـا .

أليس هو من ضاع الوهم illusionist ؟ أظن الامر كذلك والافانه يخدع نفسه . ان الناس الذين يحبهم فوكنر ـ الزنجي في رواية « الضوء في أغسطس » والاب في رواية « أبشالوم » وبايارد سارتوريس يهم أناس لهم اسرارهم وهم كذلك هادئون . انه يحلم بظلام شامل داخل الوعي نفسه ، يحلم بظلام شامل يصنعه نحن بانفسنا في نفوسنا . وهذا الحلم من الصمت ـ الصمت الذي بداخلنا والذي بخارجنا ـ هو الحلم المجدب للرواقية المحضة .

مشكلة الزمن في « الصخب والعنف »

ان اول شيء يسترعي انتباهنا عند قراءتنا لرواية « الصخب والعنف » انما هو غرابتها الفنية . فلماذا حطم فوكنر زمن قصته ونثر الاجزاء ؟ لماذا كانت النافذة الاولى التي تطل على هذا العالم الروائي هي وعي رجل أبله ؟ والقارىء مدفوع الى أن يتبين علامات ترشده ويعيد بناء السرد التاريخي .

في الرواية الكلاسية ، تتضمن الاحداث حدثا مركزيا كقتل كرامازوف العجوز . لكننا نبحث ـ عبثا ـ عن مثل هذا الحدث المركزي في « الصخب والعنف » فهل هو خصي بنجي ، أم مغامرة كاوي الغرامية المدمرة ، أم انتحار كوينتن ، أم كراهة جاسون لابنة أخيه ؟ وحالما نبدأ في التطلع الى أية جزئية سرعان ما تكشف وراءها عن جزئيات أخرى تكشف عن جميع الجزئيات الاخرى . ولا يحدث شيء ، القصة لا تفضي، نحن نكتشف الامر وراء كل كلمة والامر أشبه بحضور كثيف تتوقف كثافته على الحالة الخاصة . ومن الخطأ أن نظن ان أشكال عدم الانتظام هذه مقصودة لذاتها عبثا . فالتكنيك الروائي دائما ما يرتبط بميتافيزيقا الروائي . ومهمة الناقد أن يحدد ميتافيزيقا الروائي قبل أن يقيم التكنيك . ومن الواضح الان ان ميتافيزيقا فوكنر هي ميتافيزيقا الزمن .

ان تعاسة الانسان قائمة في كونه مقيدا بالزمن .

« ... الانسان هو مجموع تعاساته . وفي يوم ما قد نعتقد أن التعاسة ستتخلى عنك ، لكن حينئذ سيصبح الزمن هو تعاستك ... »

هذا هو الموضوع الحقيقي للرواية . واذا كان تكنيك فوكنر يبدو للوهلة الاولى أنه نفي للزمانية فما ذلك الا لاننا نخلط بين الزمانية والسرد التاريخي . الانسان هو الذي اخترع التواريخ والساعات . ولكي تستطيع ان تصل الى الزمن الحقيقي يجب أن تتخلى عن الساعات التي لا تعد مقياسا على الاطلاق لاي شيء .

« ... الزمن ميت طالما يقاس بالتروس الصغيرة ، وعندما تتوقف الساعة في هذه اللحظة فحسب يبرز الزمن الى الحياة » .

وهكذا فان حركة كوينتن من كسر ساعته لها قيمة رمزية ، انها تمنحنا دنوا من زمان بلا ساعات . ان زمن بنجي الابله الذي لا يعرف كيف يحكي الزمن لهو زمن اللاساعات .

ان ما ينكشف لنا انما هو الحاضر ، ولا ينكشف لنا ذلك الحد المثالي الواقع بين الماضي والمستقبل . ان الحاضر عند فوكنر هو حاضر مدمر ، فالحادثة هي التي تزحف علينا كاللص هائلة ومهولة ، تزحف علينا ثم تختفي . ووراء هذا الحاضر لا يوجد شيء حيث ان المستقبل لا يوجد . الحاضر ينبعث من منابع خفية علينا ويجرمعه حاضرا آخر ومن ثم فهو يتجدد والحوادث عندما تدخل الحاضر تتبعثر حتى في عين الذين قاموا بها ، وقد فاق فوكنر جون دوس باسوس في هذا الصدد .

« ذهبت الى التسريحة وتناولت الساعة ووجهها الى الاسفل . وخبطت البللور على التسريحة وامسكت الشظايا الزجاجية ووضعتها في يدي ووضعتها في المنفضة ولويت العقارب ووضعتها في الصينية . وتكت الساعة » .

وهناك مظهر آخر للحاضر أسميه « غوص بلا قرار » ، وأنا استعمل هذا التعبير الى أن أجد تعبيرا أفضل منه لكي أدل على نوع من الحركة التي لا حركة لها لهذا الوحش الهلامي . في رواية فوكنر ـ لا يوجد أي تقدم ، ولا يأتي شيء من المستقبل اطلاقا . الحاضر ليس امكانية مستقبلة شانه شان صديقي الذي أكون على انتظار لحضوره ثم يأتي . كلا ، الحضور يعني البزوغ دون مبرر ثم الغوص بلا قرار . هذا الغوص ليس رؤية تجريدية ، بل هو في داخل الاشياء نفسها . ان الامر يشبه كما لو كان فوكنر قد وضع يده على سرعة مجمدة في قلب الاشياء . وهذه السكينة المفلاتة التي لا يمكن تصورها في الامكان تاملها . ان كل شيء يحدث في رواية « الصخب والعنف » فانما هو شيء يحدث من قبل . ولهذا فالانسان عند فوكنر هو محصلة كلية دون مستقبل ، مجموع تجاربه الحرجة ، مجموع تعاساته . وفي كل لحظة تستطيع أن تجر خطا لان الحاضر ليس الا ضوضاء مشوشة ، ليس الا مستقبلا هو ماض . ورؤية فوكنر للعالم أشبه بالرجل الجالس في سيارة مكشوفة يتطلع الى الوراء ، فيرى في كل لحظة الظلال وبقع الضوء والتارجحات ، ثم يعد هذا ، بعد تأمل يسير ، تستحيل عنده الى أشجار وأناس وعربات .

الماضي يتخذ نوعا مما فوق الحقيقة ، والحاضر الذي لا يسمى

صدر حديثا

رحلة لاقصى الفجر

دراسات

تأليف محيي الدين اسماعيل

منشورات دار المعرفة بالقاهرة

والمفلات عاجز أمامه . انه مليء بالثغرات والماضي يتسلل منها . والمونولوج الذي يستعمله فوكنر يذكرنا برحلات الطيران المليئة بالمطبات الهوائية . ففي كل مطب يرتد وعي البطل الى الماضي ثم ينبعث ليغوص في الماضي ثانية . والحاضر ليس موجودا ، بل يتكون ، كل شيء «كان». في رواية « سارتوريس » كان الماضي يسمى « الحكايات » لانها كانت ذكريات الاسرة ، ففوكنر لم يكن قد وجد تكنيكه بعد .

وفي « الصخب والعنف » يتحرك الحاضر في الظل أشبه بالمجرى المتسرب في الاعماق ولا يظهر الا عندما يكون هو نفسه ماضيا .

والماضي لدى شخصيات فوكنر لا يتخذ الشكل التاريخي ، فالامر هنا أمر انفعال لدى الشخصيات . فنظام الماضي هو نظام المشاعر القلبية . ومن الخطأ الاعتقاد بأن الحاضر هو ذاكرتنا عندما يكون الحاضر هو الماضي . فالتحولات فيه يمكن أن تجعله يغوص في أعماق ذاكرتنا .

هذا هو الزمن عند فوكنر . ألا يفكرنا هذا الحاضر الذي لا يمكن التعبير عنه ، المليء بمطبات الماضي ، هذا النظام الانفعالي ، عكس النظام الارادي العقلي ، هذه الذكريات ، انفعالات القلب هذه ـ الا يذكرنا كل هذا بالزمن المفقود والمستعاد عند مارسيل بروست ؟ أنا أعرف الفرق بين الاثنين ، الخلاص عند بروست قائم في الزمن نفسه ، في معاودة ظهور الماضي . أما عند فوكنر فالماضي ليس مفقودا ، انه دائما هناك . والانسان لا يهرب من العالم المعاصر الا من خلال الوجد الصوفي ، فالصوفي هو شخص يريد ان ينسى شيئا ، نفسه أو اللغة . عند فوكنر يجب أن ينسى الزمن ، أن الزنجي المطارد في رواية « الضوء في اغسطس » لا يحقق سعادته الغريبة المرعبة ، الا عندما ينسى الزمن .

لكن الزمن عند فوكنر كما هو عند بروست هو ذلك الشيء الذي يحدث انفصالا . ان التكنيك الروائي عند بروست « يجب أن يكون » تكنيك فوكنر . انه النتيجة المنطقية لميتافيزيقاه . لكن فوكنر رجل ضائع ، وبسبب شعوره بالضياع يخاطر ويتتبع تفكيره الى أقصى نتائجه، ان بروست رجل فرنسي وكلاسي النزعة . والفرنسي ينسى نفسه قليلا فترة من الفترات لكنه يستهدف دائما أن يجد نفسه . والفصاحة والنزعة العقلية والتعلق بالافكار الواضحة هي التي أوجدت تشابها عنده بالسرد التاريخي .

لقد حاول معظم المؤلفين العظام المعاصرين : بروست ، جويس ، دوس ، باسوس ، فوكنر ، جيد ، فرجينيا وولف أن يحطموا الزمن ، كل بطريقته . بعضهم نزع عنه ماضيه ومستقبله لكي يرده الى الحدس المحض للحظة ، وآخرون مثل دوس باسوس جعلوه ذكرى ميتة مغلقة . اما بروست وفوكنر فبكل بساطة أطاحا به . لقد نزعا عنه مستقبله أي بعد الافعال والحرية . ان أبطال بروست لا تأخذ شيئا على عاتقها .. انها تضع الخطط لكنها لا تنفذ في الخارج وتصبح جسرا وراء الحاضر . انها أشبه بأحلام اليقظة التي تتلاشى على أرض الواقع . وأبطال فوكنر لا يتطلعون الى الامام . انهم يتطلعون الى الوراء والعربة تحملهم، والانتحار الذي سيأتي والذي يلقي بظله على يوم كوينتن الاخير ليس امكانية انسانية ، ولم يواجه كوينتن للحظة واحدة امكانية « عدم » قتله لنفسه . هذا الانتحار هو جدار ساكن ، شيء يقترب منه الى الوراء وهو لا يريده ولا يستطيع أن يتصوره .

« ... يبدو عليك انك تعتبر الانتحار مجرد تجربة ستجعل شعرك أبيض في الليل حتى تتحدث دون أن تغير مظهرك على الاطلاق ... »

انه مصير ، قدر ، وفي فقد عنصر الامكانية لا يصبح له مستقبل . انه حاضر من قبل ، وفن فوكنر جميعه يستهدف الى الايحاء لنا بأن مونولوج كوينتن ونزهته الاخيرة هي انتحاره المسبق . وهذا في اعتقادي يوضح الانفراق التالي : ان كوينتن يفكر في يومه الاخير على انه ماض وهو أشبه بانسان يتذكر . لكن في هذه الحالة ، لما كانت أفكار البطل الاخيرة تتطابق تماما مع انفجار ذاكرته وعدميتها ، فمن اذن الذي يتذكر؟ الاجابة المحتمة هي ان مهارة الروائي قائمة في اختيار اللحظة الحاضرة التي يحكي منها الماضي . وقد اختار فوكنر لحظة الموت النهائية . وهكذا فعندما تبدأ ذاكرة كوينتن تكشف ذكرياتها يكون قد مات من قبل . وكل هذا الوهم مقصود كبديل عن حدس المستقبل الذي ينقص المؤلف نفسه. وهذا يوضح كل شيء ، وخاصة لا معقولية الزمن ، فلما كان الحاضر هو غير المتوقع ، فان ما لا تكوين له يمكن أن يحدد عن تراكم الذكريات. ونحن نفهم الان كيف أن الديمومة « هي تعاسة الانسان المميزة له » . لو كان المستقبل له واقع ، فسوف يجذبنا الزمن من الماضي ويقربنا من المستقبل ، لكن اذا أطحت بالمستقبل ، فالزمن لن يعود ما يفصل ، ذلك الذي يفصل الحاضر عن نفسه . الانسان يقضي العمر مناضلا ضد الزمن ، والزمن أشبه بالحامض ، يتأكله من نفسه ويمنعه من تحقيق شخصيته الانسانية . كل شيء عبث . « الحياة قصة يحكيها أبله مليئة بالصخب والعنف ، وهي لا تعني شيئا » .

لكن هل زمان الانسان بلا مستقبل ؟ أفهم أن زمن الذرة أو المسمار حاضر دائم . لكن هل الانسان مسمار مفكر ؟ ان الوعي يمكن ان « يوجد داخل الزمن » على شريطة أن يصبح الزمن نتيجة حركة يصبح بها وعيا . يجب أن يكون « زمانيا » كما عبر هيدجر . اننا لا نستطيع أن نستحوذ على الانسان في كل لحظة ونحدده على أنه « مجموع ما هو » . ان طبيعة الوعي تقتضي أن تقذف بنفسها في الخارج في المستقبل .

وهذا ما عبر عنه هيدجر بقوله : « القوة الصامتة للممكن » . انك لن تتبين داخل انسان فوكنر ، مخلوقا بلا امكانيات يمكن تفسيره في ضوء مجموع ما هو عليه . الانسان ليس مجموع ما هو عليه ، بل مجموع ما لم يحصل عليه بعد ، مجموع ما يجب أن يكون عليه . ان الحادثة لا تزحف علينا كاللص حيث أنها ملكية لها مستقبل . وأنا أخشى أن عبثية فوكنر الموجودة في الحياة الانسانية هي من النوع الذي وضعه هو بنفسه هناك . ليست هذه الحياة عابثة ، ولكن هناك عبثية من نوع اخر.

لماذا اختار فوكنر وعديد من الكتاب الاخرين هذا النوع من العبثية التي لا تعد روائية ومن ثم فهي غير حقيقية ؟ أعتقد أننا يجب أن نبحث عن السبب في الظروف الاجتماعية لحياتنا الراهنة . أظن أن يأس فوكنر يسبق ميتافيزيقاه . فبالنسبة له ، كما بالنسبة لنا ، المستقبل مسدود. وكل شيء نراه ونختبره يدفعنا الى القول : « لا يمكن لهذا أن يدوم » . ومع هذا فالتغير لا يمكن تصوره حتى على شكل شغب وفوضى . اننا نعيش في زمن الثورات المستحيلة ، وفوكنر يستخدم فنه الشاذ ليصف عالما يموت شيخوخة . انني أحب فنه ، لكنني لا أؤمن بميتافيزيقاه . فالمستقبل المسدود لا يزال مستقبلا . انني مؤمن بما قاله هيدجر بأن الواقع الانساني اذا لم يكن أمامه شيء واذا كان مستقبله مغلقا فان فقدان الامل لن ينزع الواقع الانساني من امكانياته ، والامر بكل بساطة هو طريق « للوجود » في هذه الامكانيات نفسها .

القاهرة

مجاهد عبد المنعم مجاهد

كتابان خطيران

عارنا في الجزائر — لجان بول سارتر

الجلادون — لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الآداب